

الفكر والممارسة في أيديولوجيا الاستمهاض اليهودي

عاطف عطينة(*)

«أرني إنسانك قبل أن تريني إلهك»

القديس أوغسطينوس

يضمّر التفريق بين اليهودية والصهيونية في كتابات المهتمين بالصراع العربي - الإسرائيلي والمتابعين للتطور الفكري والسياسي للأيديولوجيا اليهودية، خوفاً من الوقوع في التعصّب الديني. التعصّب الذي يساهم في تأجيج الصراع بين الأيديولوجيات الدينية، ويعزّز التمسك بالدين على الوجه المقابل للتمسك بالدين الآخر، أو دين الآخر، ويفرض توجّهاً على غير ما يفرضه الآخر، ويستمدّ مشروعيتها منه.

التفريق هذا يحرص على حصر السجال الأيديولوجي في الموقع الحضاري، وعلى المستوى السياسي، بتوجيه النقد، وعلى الصعد كافة، إلى التوجّه السياسي لقسم من اليهود، وليس جميعهم، أي التوجّه الصهيوني. هذا النقد ينظر إلى الدين اليهودي على أنّه دين سماوي توسّلت الصهيونية للوصول إلى أهدافها، انطلاقاً من المقولة الرائجة حالياً حول عملية استمهاض الدين في سبيل خدمة السياسة والمكاسب السياسية⁽¹⁾. ولكن التأمل في المسألة اليهودية، وقبل نشوء الفكرة الصهيونية، يظهر الدين اليهودي، كعقيدة، على غير ما يظهره التأمل في عقائد الأديان الأخرى. فتصوّر اليهودية لله يختلف عن تصوّر المسيحية والإسلام له.

إله اليهود هو إله شعب إسرائيل، الشعب المختار الذي سيقود العالم في نهاية

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعية.

(1) هذه مقولة أساسية في كتابات كثيرة. أنظر على سبيل المثال: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة حافظ الجمالي وصيّاخ الجهيّم، ط 2، دار عطية للنشر، 1996، ضبيّة، دمشق، ص 223.

الزمان، بداية مملكة الأرض بمجيء المسيح اليهودي المنتظر. هذه النظرة اليهودية إلى الله أنزلته من حقيقته المطلقة المتعالية عن المادة وعن كل ما هو نسبي ومتغير، كما هو في المسيحية والإسلام، إلى إله مخصوص بشعب محدد ومختار، إلى إله قومي وإلى حقيقة نسبية. فاكْتَسَبَ بذلك المقدس طابعاً قومياً، والمطلق اكتسب بعداً نسبياً⁽²⁾. هذا ما يميز الديانة اليهودية التي تضفي نوعاً من القداسة على شعب بكامله يمثل امتداد الله في الأرض. وعلى ذلك فإن الله يصبح حقيقة ذاتية يمكن للذات البشرية الإحاطة بها.. بل إنه ليلغي وجود الذات اليهودية الفردية. والحوار لا يتم إلا بين الخالق والشعب الكل، وهكذا يذوب الله في الشعب ويذوب الشعب في الله مكونين كلاً واحداً غير متمايز. «لقد حلَّ المطلق في النسبي حلولاً كاملاً، كما ابتلع النسبي المطلق ابتلاعاً كاملاً...»⁽³⁾ إنَّ روح إسرائيل وروح الله هما شيء واحد، على حدِّ تعبير أحد الحاخامات اليهود. وعبرَ حاخام آخر عن هذا الترابط بقوله: عندما وجدت إسرائيل نفسها وجدت إلهها⁽⁴⁾.

أما التأمل على صعيد التطور الاجتماعي التاريخي للممارسة الدينية، فيظهر التأثير الشديد للدين في الحياة اليومية والممارسة العملية. ذلك أنَّ الدين قد ساهم في تعميق عزلة اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً، عليه من أجل الحفاظ على قدسيته أن يمارس شعائره الدينية - الدنيوية التي تطول جميع جوانب الحياة. وأكّدت في الوقت نفسه، على تأكيد الانفصال، وبهذه الممارسات بالذات، عن الأغيار، عن كل ما هو غير يهودي. هذا كله، بالإضافة إلى حالة الانتظار التي يعيشون، كشعب مختار للخلاص، أضعف أية إمكانية للاندماج في حضارات الآخرين، إذا لم يقض عليها؛ إلا، طبعاً، إذا تخلّوا عن أحلامهم، وعن كونهم شعباً مقدساً (عن أيديولوجيتهم)، فيبطل عندئذ كونهم يهوداً، ويهدّدون وجود اليهودية نفسها كعقيدة دينية وممارسة سياسية. وهم بذلك يشكلون خطراً أكيداً، أكبر بما لا يقاس من خطر أعداء السامية أنفسهم.

والممارسة الدينية ما هي إلا التطبيق العملي للإيمان الديني. وما ينعكس في ممارسات الناس هو الذي يحدّد تجليات الإيمان الديني. ومن خلال الممارسة العملية يتم الحكم على مدى فعل الإيمان الديني، وعلى مدى توسّل الإيمان الديني في الفعل الاجتماعي. «أرني إنسانك قبل أن تريني إلهك». هذا ما قاله أوغسطينوس القديس.

ما رسخ في ذهن اليهودي، وما حدّد مساره في علاقاته مع المنتقمين إلى الدين نفسه، وفي علاقاته مع المنتقمين إلى الأديان الأخرى، هو أنه من طبيعة مغايرة، من شعب مختار، موعود بمملكة العالم. الآخرون متمّمون لهذا الوعد، وعليهم أن يعملوا على تكميمه. علاقاته مع هؤلاء تحدّدُها هذه المسألة. حياته فترات انتظار لما هو آتٍ. والآتي

(2) عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، القسم الأول، العدد 60، 1982، الكويت، ص 227.

(3) المرجع نفسه، ص 230.

(4) المرجع نفسه، ص 231.

تحقيق مملكة الأرض بمجيء مسيح اليهود المنتظر. وكل ما عدا ذلك باطل⁽⁵⁾.
تصور هذا شأنه، لا يمكن أن يستمر حياً في مخيال الجماعة إلا إذا بقي متحركاً في الذاكرة. والذاكرة الشعبية هي مجال مراقبة القيمين على استمرارية الصورة في زهوها المعهود، وعلى أولوياتها في ترتيبهم، وفي الخلفية المفتوحة على فضاء رحيب يوحي بالوعد الإلهي، ومشهد أرضي يفصل حده بين سواد أرض وبياضها؛ سواد لا أهمية له إلا بمقدار ما يظهر رهافة البياض وشفافيته في أرض الميعاد، أرض يهوه التي ستكون المركز ونقطة الانطلاق لتحقيق العدل «اليهودي» في العالم أجمع⁽⁶⁾.

الأيديولوجيا اليهودية - الدينية العنصرية

ما نتج عن ذلك، شكل البنية الذهنية لليهود ونزوعهم الشخصي الاجتماعي⁽⁷⁾ في نظرتهم إلى العالم، وحدد مسار حسهم العملي المتسم بسمات الاحتقار والكرهية والاستعلاء، ورسم لهم نمطاً من الحياة يضعهم في موقع المركز من العالم، ويحثهم على ممارسة الأعمال التي تبغي الربح السريع وجمع المال بصرف النظر عن الوسيلة من الربا والرهونات إلى المضاربات والسمسرة دون أي اعتبار للقيم الأخلاقية السائدة في المكان والزمان، طالما أن الدين لا يوصي بها، ولا يحدد أمور الثواب والعقاب في الآخرة⁽⁸⁾.

السلوك اليهودي المعبر عن أيديولوجيا واضحة المعالم في تصورهم للكون، وفي علاقاتهم مع الآخرين كان في مقام العلة لمعلول مباشر عكس نظرة «الآخر» إلى اليهودي، كانت بمجملها نظرة سلبية وصلت حد الحقد والكرهية الشديدة⁽⁹⁾ المقابلة. وقد ساهم اليهود أنفسهم في تأجيجه، وتوسلوا ذريعة لتكريس عزلتهم وإبراز تميزهم، ولتمتين الأواصر فيما بينهم، وليغلقوا أي باب يمكن أن يلجيه اليهودي و«يودي» به إلا الاندماج والانصهار في المجتمع الذي يعيش فيه.

يفضي هذا السلوك في حال ممارسته إلى تحقيق غايتين يشكلان العمود الفقري للأيديولوجيا اليهودية: بعث الخوف الدائم في نفس اليهودي من «الآخر»، وتأجيج نزعة

(5) المرجع نفسه، ص 43.

(6) في أهمية الحاخام في مراقبة مسيرة الإيمان الديني «العملية»، انظر: المرجع نفسه، ص 39.

(7) لأهمية مفهوم التزوع الشخصي الاجتماعي أو الـ *Habitus*، حسب «بورديو»، في توجيه مسار الحياة العملية للإنسان الراعية واللاواعية في المجتمع انظر:

Pierre Bourdieu, *Le sens paratique*, éd. De Minuit, 1980, Paris, pp. 87-109.

وحول استعمالات هذا المفهوم في اللغة العربية، انظر: فردريك مترك: المعرفة، المجتمع والتاريخ، جروس برس، 1991، طرابلس، لبنان، ص 62.

(8) انظر في هذا الخصوص: محمد عرب: الشخصية الصهيونية، ملامحها في الرواية الغربية وجذورها التوراتية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1983، ص 168.

(9) المرجع نفسه، ص 170.

الانتماء لديه إلى الدين وإلى الجماعة الدينية.

قام بهذه المهمة، أولاً، حرس طهارة الدين وحاملو لوائه من كهنة وحاخامات، من أجل الحفاظ على الدين اليهودي واستمراريته بانتظار تحقيق الوعد الإلهي. وتابع للغاية نفسها، ثانياً، سياسيو الصهيونية العالمية، حرس الطهارة الجدد والمدافعون باسم الدين والسياسة على وجود اليهود في العالم، ومعمّرو كياناتهم السياسي المخصوص، مكان تجمّع اليهود في إطلالتهم منه على العالم، بنواته الأولى فلسطين، وبحدوده الممتدة علناً، أمام أنظار العرب، والمتحدية لهم، من الفرات إلى النيل.

في واجهة الصورة تغير ترتيب اللاعبين، وبقيت خلفيتها على وضعها المعهود: وعد إلهي مفتوح على فضاء فسيح، وأرض موعودة تطمح في تمددها البطيء، على إصرار، إلى ملامسة حدّ الظلمات، ومستوطنون لا يتورعون عن فعل أي شيء في مواجهة من يوقف هذا التمدد، أو ينقص من مساحتها، حتى وإن كانوا من اليهود أنفسهم. ومقتل رابين، اليهودي الذي مارس شتى أنواع الإرهاب في خدمة الأيديولوجيا اليهودية - الصهيونية، ليس إنتاجاً سياسياً صهيونياً فحسب، بل هو أيضاً، إنتاج نظرة دينية توراتية إلى أرض مقدسة وعد الله بها شعبه، وتصرف بها آدمي على غير وجه حق، وعلى غير ما تفصح عنه الشريعة الدينية⁽¹⁰⁾.

لقد نجحت تهمة اللاسامية في لجم الدارسين في تاريخ المسألة اليهودية عن التعرّض لها كأيديولوجيا دينية، وحصر التعرّض، إذا كان لا بدّ، بالصهيونية، الوجه السياسي لليهودية، وخصوصاً بعد المحنة التي تعرّضوا لها على يد النازية، المحنة التي أفادتهم في توجيههم ودعّمت أيديولوجيتهم أكثر من أي شيء آخر في تاريخهم القديم والحديث، على ما يذهب إليه المفكر الفرنسي روجيه غارودي⁽¹¹⁾.

حرس الطهارة اليهودية - الصهيونية وحاملو لواء التميّز والتفوق على عناصر البشر جميعاً قاموا بكل ما يلزم من أجل استمرارية النزوع الشخصي الاجتماعي و«الحسن السليم» في ذاكرة اليهود وفي مخيالهم الاجتماعي. ولم يلق هؤلاء إلا التجاوب والانصياع من «الرعايا» الذين يكتنون لهم الاحترام والتبجيل الذي يصل إلى حدّ التقديس. ويظهر حماس هؤلاء ويصل إلى أقصى مداه في أزمنة الأزمات، وفي أوقات وعي الشعوب الأخرى، الذين يعيشون معهم، لأوضاعهم الاجتماعية ولانتماءاتهم القومية والوطنية. فتنعكس هذه المحطات كوارث عليهم، تهدّد وجودهم، وتوحي بإمكانية ذوبانهم في الشعوب الأخرى؛ وهذا أقسى ما يمكن أن ينتظروه، وأقصى ما يمكن أن

(10) انظر في هذا الخصوص: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مذكور سابقاً، ص 45 -

46. أيضاً: رشاد عبد الله الشامي: «إشكالية الهوية في إسرائيل»، عالم المعرفة، العدد 224، آب 1997، الكويت،

ص 233 - 234.

(11) روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مذكور سابقاً، ص 166، وفي أماكن أخرى متفرقة من الكتاب.

يصابوا به من كوارث ونكبات. والمثال في مناقضتهم الحماس للمشاريع القومية. قابل اليهود المشروع القومي، البالغ الحداثة في أواخر القرن الماضي الأوروبي، وبداية هذا القرن، بفتور بالغ وبحماس مقابل لعدم الانخراط في مواطنة المجتمعات الجديدة بمساواتها في الحقوق والواجبات بين المواطنين على اختلاف انتماءاتهم. وانتقلوا، بخطوة متقدمة في هذا الاتجاه، إلى المطالبة بالاحتفاظ بوضعهم السابق داخل مناطقهم الخاصة (الجيتو)، وبأساليب تعليمهم لما للتعليم الرسمي من خطر على أطفالهم بما يمكن أن يقدمه على صعيد الاندماج⁽¹²⁾. حتى أنهم استعطفوا، بلسان قادتهم الروحيين، (الحاخامات)، قيصر روسيا سنة 1802، باستثنائهم من أية عملية إصلاحية، على قلة هذه العمليات في ذلك الوقت. وقد صام هؤلاء مع رعاياهم مدة ثلاثة أيام من أجل إبعاد عمليات الإصلاح⁽¹³⁾.

ما كان يميز اليهود ويبعدهم عن الاندماج في مجتمعاتهم، الجيتو والمهنة. الجيتو من أجل المحافظة على شخصيتهم المستقلة، والمهنة من أجل تراكم المال السائل، سهل الانتقال والتحويل، عنوانا عدم الشعور بالاستقرار والانتماء إلى مجتمعات لا يحس فيها اليهود في أعماق ذواتهم، ولا تحيا في وجدانهم، طالما لا تمثل أرض الميعاد. ولذلك فإن حوالي 87% منهم كانوا يعملون تجاراً ومرايين⁽¹⁴⁾. ومن ارتضى الاندماج شكّل دعماً لوجستياً للفكر اليهودي المرتبط بالأصول، وللممارسة الإرهابية، تتقافزه فكرتان متناقضتان: العلمانية في أرض «الشتات»، والأصولية الدينية في الأرض الموعودة، حملوهما بما يشبه الانفصام.

تقاطع مصالح اليهودي ومصالح الآخر جعلهما يتصرفان على غير تنسيق، وعلى غير تكامل. اليهودي يرمي للحفاظ على وضعه مستقلاً و متميزاً في مواقعه وفي مهنة، والآخر يتطلع إلى عصر جديد، تلفظ فيه الإقطاعية أنفاسها الأخيرة، ويتهيأ لاستقبال الرأسمالية بماديتها وجشعها وعشقها للمال، وفعل أي شيء في سبيل الحصول عليه⁽¹⁵⁾. هذه القيم هي ما كان يتفرد بها اليهودي، وتميزه. كان يمارسها وهو يعيش حالة من الانتظار خارج المكان وخارج التاريخ. وبانتقال هذه القيم من طائفة إلى عصر بكامله، انقلبت المعادلات وتغيرت نوعية التعامل بين الناس. وتزامنت المشاكل المتأنية من تقادم الهجرة اليهودية إلى أوروبا من روسيا القيصرية التي كانت تعيش عصر التحول ابتداء من سنة 1882، والناجمة بدورها عن رفض الخضوع لقوانين الاندماج في المجتمع الروسي، تزامنت مع مشاكل اللاندماج في قلب أوروبا ذاتها، أوروبا عصر القوميات والانتماء الوطني. وترافقت جميعها مع خوف عميق ومتأصل في نفوس اليهود من

(12) عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 64.

(13) المرجع نفسه، ص 74.

(14) المرجع نفسه، ص 73.

(15) محمد عرب: الشخصية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 173 - 174.

استنفاد اليهودية لمضمونها كنمط حياة، ونظرة متميزة إلى الذات، ومتعالية على الآخر. فأدى ذلك كله إلى التفكير المعمق لكيفية الاستمرار، وللحفاظ في الوقت نفسه على الهوية المميزة لليهود، والمعرضة للذوبان في عصر الدول القومية والانتماء الوطني. وما نتج، ظهر بممارسات متعددة: انهار الإيمان الديني لبعض اليهود ودخلوا بالكلية في قلب العصر حيث يعيشون، وبعضهم التحق بالمنظمات الاشتراكية ناقلاً نضاله من مجال إلى مجال آخر؛ ومنهم من رضي بالانتماء متخلياً عن كل ما يربطه بالفكر اليهودي والممارسة اليهودية. والكثيرون منهم حاولوا أن يحتموا من كل مغريات العصر بالتنظيم الذي يجدد عملية الانتماء اليهودي، ويعيد إنتاجها على أسس أكثر وضوحاً، وأمن في تماسكها، وأكبر رغبة في العيش في عالم يختص بهم وينغل علىهم⁽¹⁶⁾. فكانت الصهيونية.

الأيديولوجية اليهودية - الصهيونية السياسية

صاغ اليهود الرافضون للأمر الواقع أيديولوجيتهم الصهيونية انطلاقاً من الواقع الاقتصادي والنفسي الذي وجدوا أنفسهم فيه. فراحوا يفكرون بطريقة ينتقلون فيها من الانفعال بالأحداث إلى الفعل فيها. وكانت البداية، التفكير بجيتو كبير يختص بهم، وينتقلون إليه من أرض الشتات المزروعة في العالم كله. وتنقلت الرغبة من مكان إلى آخر، إلى أن تم إقرار أرض فلسطين. وكان لهذا الإقرار غايتان: الأولى، إعادة إحياء الحلم القديم الذي يربط اليهود بأرضهم الموعودة؛ والثانية، نفخ أشربة الحنين في قلوب الذين تخلوا عن يهوديتهم وعن حلمهم بأرض الميعاد. هذا ما فعله هرتزل، مرمم اليهودية الدينية، ومهندس الصهيونية، بوضعه كل ما يمت إلى الدين بصلة في خدمة الأهداف السياسية. وقد اعتبر هو نفسه أن برنامجه في إقامة دولة إسرائيل ما هو أكثر من برنامج استعماري، مدركاً في الوقت نفسه، أهمية إحياء فكرة الوطن اليهودي في ذاكرة اليهود بقوله: «إن فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكن نسيانه»⁽¹⁷⁾.

أعادت الصهيونية، بتجديدها الإيمان باليهودية المرتبطة دينياً بالتوراة، وإيماناً بالأرض الموعودة، وعنصراً بشعب الله المختار، الثقة إلى اليهود، كشعب متفوق، قادر على بناء دولة قوية متفوقة تحقق الوعد الإلهي، ومحمية من الإله اليهودي في الوقت نفسه. إنه كشعب، «يستند بالماضي ويطمح إليه، وهو بذلك يمكن أن يدرس كإنسان متخلف يتنكر لكل معطيات الحضارة الحديثة. إنه بعقليته وأيديولوجيته يعيش قبل ثلاثة آلاف سنة، ولكنه يختار الأسلحة التي ابتكرت في القرن العشرين»⁽¹⁸⁾.

والمشكلة ليست في العصر الذي يعيش فيه اليهودي - الصهيوني، أو في عقلية أو أيديولوجيته؛ فليعيش كما يشاء. ولكن المشكلة في ما يمكن أن ينتج عن ذلك في نظرة

(16) المرجع نفسه، ص 175 - 176.

(17) روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة...، مذكور سابقاً، ص 24 - 25.

(18) محمد عرب: الشخصية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 192.

اليهودي إلى الآخرين، وفي ما يجب أن تكون نظرة الآخرين إليه، وينظره هو أيضاً. مطمح اليهودي أن يبقى قوياً، قاتلاً وذابحاً في أعين الآخرين وفي ذاكرتهم، ... أخيراً أنا رجل. هذه، هذه فعلاً، هي الحياة، فلاعش ذابحاً...». هذا ما يصرح به البطل اليهودي في إحدى روايات «دزرائيلي» الذي أصبح رئيس وزراء بريطانيا فيما بعد⁽¹⁹⁾. فلا شيء يعيد الثقة إلى شخصية اليهودي أكثر من القتل، ولا شيء يشعره بالقوة إلا الذبح. والعنف هنا يصبح الاداة الرئيسة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية، «فاليهودي - في هذا التصور - يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية»⁽²⁰⁾.

هذه المسيرة العنيفة تتكرر، وتكرارها لا يحصل بالصدفة. ولنتأمل في ما تمّ فعله في لبنان ابتداءً ممّا يحصل الآن، ورجوعاً إلى الوراثة في التاريخ، من قانا إلى المسجد الإبراهيمي، مروراً بتنظيم المذابح الجماعية للفلسطينيين في لبنان، وتدمير المدن اللبنانية، وفرض التهجير بافتعال المجازر الجماعية من دير ياسين إلى كفر قاسم، المتصلة جميعاً «بالمآثر اليهودية» ضد الكنعانيين والمنفذة بموجب أوامر إلهية خاصة باليهود.

وهنا يصير التساؤل التالي مشروعاً:

ما هو الفارق بين ما قام به يوشع بن نون الذي يعتبر من الأنبياء المتقدمين في اليهودية، ومثالاً أعلى في المناهج التربوية اليهودية - الإسرائيلية، في محاولته للقضاء على الكنعانيين حيث قتل كل من في أريحا، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحدّ السيف... وكذلك في مقيدة ولبنة وغيرها من المدن الكنعانية، وما تزخر به أسفار الأعداد والتثنية والخروج⁽²¹⁾؛ وبين بيغن الذي دبّر عملية التهجير الواسعة بتنفيذه مجزرة دير ياسين التي ذهب ضحيتها 254 شخصاً من الرجال والنساء والأطفال⁽²²⁾، وبين غولدشتاين ومقتل 27 عربياً يصلّون في المسجد الإبراهيمي، وبين مقتل 107 أشخاص من كل الأعمار في عملية عناقيد الغضب المنصبة على الأبرياء في قانا، وبين العمل المستميت للحفاظ على الهوية اليهودية، كهوية قومية، وعلى نقائهم العنصري بعدم الاختلاط الزواجي، أو الاندماج بوحدة الانتماء مع الشعوب الأخرى؟⁽²³⁾

(19) انظر عرضاً مختصراً لتوجّه البطل في هذه الرواية في: المرجع نفسه، ص 194.

(20) عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 264.

(21) انظر في هذا الخصوص الأسفار المذكورة في العهد القديم، أيضاً: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة...، مذكور سابقاً، ص 60 - 62. أيضاً: محمد عرب: الشخصية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 196 - 197.

(22) انظر للتفصيل حول هذه المسألة وأهميتها في السياسة التوسّعية الإسرائيلية: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة...، مذكور سابقاً، ص 183 - 197. أيضاً: عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، القسم الثاني...، مذكور سابقاً، ص 396 - 404.

(23) ما يؤثّر عن اليهود في مجال الحفاظ على نقائهم العنصري ما ذكره روجيه غارودي عن تدنيس مقابر ليهود، من الذكور والإناث، تزوّجوا من غيرهم. وقد تبين فيما بعد أن بعض المنظمات اليهودية هي التي افتعلت ذلك. وكانت النتيجة أن اليهود أصابوا عصفورين بحجر واحد، وإن مؤقتاً. فقد عملوا على تنظيم مظاهرات عديدة سار فيها مئات الألوف من اليهود، والمتعاطفين معهم، يهتفون ضد «الخارج» اللاسامي، وهذّوا بشكل مبطن الخارجيين عن الهوية بالزواج المختلط. انظر في هذا الخصوص حادثة مقبرة كارينتراس وغيرها في: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مذكور سابقاً، ص 243 - 247.

إنَّ ما يجمع هذه الوسائل جميعاً، وحدة الهدف والغاية التي يعمل اليهود للوصول إليها. الاستراتيجية واحدة، والوسائل متعدّدة من أجل الحفاظ على وحدة اليهود وقوّتهم ونقائهم، في الماضي، وتحقيق دولة اليهود في العالم من الفرات إلى النيل في الوقت الحاضر. وفي الحالتين رسم واضح ودقيق لما تتضمنه أيديولوجيا الاستنهاز والاستنفار لليهودية الدينية المتماثلة بنيوياً مع اليهودية - الصهيونية.

بعد تجديد الدماء في شرايين اليهودية بأيديولوجيتها الجديدة ذات الوجه السياسي - العنصري في مؤتمر بال سنة 1897، توضّحت الاستراتيجية الجديدة للقادة السياسيين لليهودية في العالم. ووجدوا أنَّ الحل الوحيد للحفاظ على الحلم اليهودي، وعلى تضافر جهود اليهود في العالم، هو توضيح معالم هذا الهدف والبدء بالممارسات العملية للوصول إليه. فكيف كان ذلك؟

على المستوى النظري، تجنّد الاهتمام بالتوراة بكل ما فيها من أساطير وحكايات تبرز التفوق اليهودي ومؤهلاته لقيادة العالم، وبكل ما فيها من غذاء لتنمية الشعور بالتمايز، وإضفاء الشرعية على السيطرة والتوسع تحقيقاً للوعد الإلهي، ولأخذ العبرة ممن سبقوا في كيفية التعاطي مع الآخرين والإفادة من تجاربهم⁽²⁴⁾.

ولم يكتف القِيَمون على شؤون الاستنهاز بالتوراة، بل عملوا على إبراز ما يناسب هذه الأيديولوجيا من أجل ترسيخ قيم التعصّب والقتل والخوف الدائم من الآخر، في المناهج التربوية للدولة اليهودية، كما عملوا على جعل أنبياء اليهودية وقادتها قدوة للصغار، ومثلاً علياً يتمثلونها في حياتهم اليومية، وفي تنشئتهم اليهودية، ووعيمهم كشعب له خصائص ومميّزات تجعله في موقع مخصص ومتميّز عن العالمين. فالعظيم والرائع في الماضي، من وجهة نظر الجماعة، هو ما تسعى في الوقت نفسه لأن تكونه، «وبهذا المعنى يعيش الماضي في قلب الحاضر»⁽²⁵⁾. ومن أجل ذلك تعمل السياسة الصهيونية - اليهودية على الموجة الانتقائية. الموجة التي تتجاهل أي نقد، وتتفاعل مع أي توجّه ملائم لا أيديولوجيا الاستنهاز. وهنا «تكن الخطورة في فهم الماضي وتبنيّه ومحاولة إعادة صنعه وترتيبه وفقاً لما جاء في التوراة عن قصص التوسع»⁽²⁶⁾. لذلك تعتبر اليهودية - الصهيونية نفسها وريثة اليهودية الدينية القديمة، المستمرة فيها، الحاملة الجديدة للواء التوراة، والعاملة على تجديد العهد من أجل استعادة الذات وتجديد الهوية، ولتظهر اليهود في العالم على صورة الأجداد ومثالهم.

أما على مستوى الممارسة، فقد قام اليهود بكل ما يمكن أن يخدم هذه الأيديولوجيا في علاقاتهم مع الآخرين. بنوا سياسات وأنشأوا علاقات بدافع من هذا التوجّه. استغلّوا التناقض العنصري بين اليهودية والنازية من أجل خدمة أهداف

(24) المرجع نفسه، ص 184.

(25) محمد عرب: الشخصية الصهيونية...، مذكور سابقاً، ص 202.

(26) المرجع نفسه، ص 203.

اليهودية - الصهيونية. وعملوا على اقتعال المجازر ضد اليهود من أجل استنفار هؤلاء ووضعهم أسرى النطاق اليهودي ومنطق اليهودية. قاموا بكل ما يمكن أن يدفع اليهودي للاضطدام بالحائط المسدود من أجل أن يرتد إلى حمى الانتماء الديني بعنصريته وصهيونيته. ناضلوا وقاتلوا سراً وعلانية من أجل زيادة وتيرة الاستنهاز ضد كل ما هو مهدد، أو يمكن أن يهدد، للشخصية اليهودية، أو للوجود السياسي اليهودي حتى وإن كان من اليهود أنفسهم.

في هذا الاتجاه، التقت الأهداف اليهودية - الصهيونية مع الأهداف النازية في بدايات الحرب العالمية الثانية. النازيون يريدون التخلص من اليهود، على ما تفصح عنه عنصريتهم الساطعة، واليهود يريدون، بتوجيه قادتهم وتكتيكهم، الهجرة إلى الأرض الموعودة، على ما تفصح عنه الوعود والأحلام. ومن عمل على عرقلة هذا اللقاء بالتخلي عن حلمه أو عن خدمة الأهداف القريية والبعيدة للقادة اليهود، من اليهود أنفسهم، فقد كانوا موضوع لقاء جديد بين العنصريتين المتماثلتين بنوياء، الصهيونية والنازية: تخلي القادة اليهود عنهم مقابل إطلاق حرية النازي في أن يفعل ما يشاء. ومن ثم حملوا قميص اليهودي المذبوح المخضبة بالدم والمبللة بدموع التماسيح على أبرياء ماتوا، وبأعداد مبالغ فيها كثيراً وصلت إلى الملايين الستة من اليهود وحدهم، تقلصت فيما بعد ووصلت اليوم إلى ما يقارب المليون، يرفعونها في وجه العالم استدراكاً للعطف، وتشجيعاً للتفاضي عما يفعلونه هم من مذابح تجاوزت في عنفها ودمويتها ما تعرضوا له في ألمانيا النازية. ومن لم يتفاض عما يرتكبونه من مجازر وأفعال منافية للإنسانية، أو من يحاول كشف عنصريتهم، اتهامه باللاسامية، التهمة التي أفادتهم في أيديولوجيتهم واستراتيجية دفاعهم وهجومهم أكثر من ملايين اليهود المنتشرين في العالم، أو المذبوحين على يد النازية⁽²⁷⁾. وكان هرتزل، أحد كبار القادة اليهود، يعتبر أن أعداء السامية هم الأصحاء الأوثق عهداً لأنهم سيساعدون بلاساميتهم، على إنشاء دولة اليهود في العالم⁽²⁸⁾.

كان من السهل على القادة اليهود تدبير عمليات تهجير اليهود من البلاد العربية عن طريق افتعال الحوادث مع حكومات هذه البلدان وشعوبها من أجل التضييق على اليهود فيها وتهجيرهم. وفي حال الفشل، كانت المنظمات اليهودية - الصهيونية هي التي تقوم بهذه المهمة حتى وإن قتل عدد من اليهود؛ فالعبرة في النتائج، وفي الأعداد التي يمكن أن تهاجر إلى الأرض الموعودة خوفاً أو قسراً⁽²⁹⁾.

(27) انظر للتفصيل حول هذه المسألة الأطروحة الأساسية لغارودي في: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة...، مذكور سابقاً، ص 103 - 181.

(28) الفكرة مأخوذة من يوميات هرتزل، ومذكورة في: المرجع نفسه، ص 93.

(29) انظر للتفصيل حول عمليات المنظمات اليهودية لتأمين هجرة اليهود العرب إلى إسرائيل من الجزائر والعراق ومصر، كمثال في: المرجع نفسه، ص 92. أيضاً: المسيري: الأيديولوجية الصهيونية...، القسم الثاني، مذكور سابقاً، ص 314 - 320. وحول تهجير الباكسة باتريا على يد المنظمات نفسها، وذهب ضحيتها 240 لاجئاً يهودياً «كشهداء» لايديوجيا الاستنهاز، انظر: المرجع نفسه، ص 320 - 322.

بقيام الدولة اليهودية - الصهيونية، دولة إسرائيل، المعترف بها من الأمم المتحدة بدون نظام حكم، بدون حدود، وبدون دستور ينظم العلاقة بين الدولة والمواطن، وبين المواطن والمواطن، سكن اليهود إلى هدوء مؤقت على جبهة العمليات العسكرية، ونشطوا على جبهة العمل السياسي ليثبتوا مشروعية وجودهم أمام العالم، وليظهروا بمظهر من استعاد حقه بعد فترات طويلة من الظلم والاضطهاد والتشتت في العالم، وسط رفض وعجز مطلق عن التصدي من قبل العرب، وانحياز سافر من الغرب الذي أصاب هدفين بطلقة واحدة: التخلص ولو جزئياً من مشكلة اليهود كوجود يفرض نفسه على أنه مميز ومستقل، وزرع قطعة من الغرب تنفذ مصالحه وتسهر على رعاية هذه المصالح على يد اليهود في العالم كله، من أجل دعم استراتيجيتها في الوجود والتوسع. هذا التوجّه، يفرض عليها نوعاً من الاستنفار وحالة حرب وتهديد دائمة وكاملة، يواكبها في الوقت نفسه، إحساس بالطمأنينة العسكرية الكاملة والقدرة على الهجوم في الوقت المناسب⁽³⁰⁾.

لم تنجح الصهيونية، كعقيدة سياسية، في تحديها لليهودية - الدينية إلا في الوقت الذي تسلّمت فيه زمام المبادرة لتحقيق حلم اليهود في إقامة دولة إسرائيل. وتنازل القيمون على شؤون الدين اليهودي عن مقدمة الصورة، طالما الغاية والهدف تحقيق هذا الحلم. وبقي الأمر على ما هو عليه إلى أن قامت الدولة، وإلى أن بدأ الحديث عن دولة سياسية تقتصر على اليهود المولودين والمقيمين في إسرائيل، على أن تلقى الدعم والتأييد المادي والمعنوي من يهود الشتات الذين يفضلون البقاء في مجتمعاتهم. فظهرت المعارضة اليهودية نفسها لقيام دولة على هذا النمط السياسي الذي يفصح عن خيانة واضحة للحلم اليهودي في إقامة الدولة الموعودة المرتبط وجودها بمجيء المسيح اليهودي المنتظر. لذلك لا يجوز حرق المراحل والتمرد على مشيئة الله⁽³¹⁾. وحتى الآن، ثمة قوى دينية تعتبر أنّ قيام هذه الدولة مخالفة دينية لفكرة مقدم المسيح المنتظر، بالرغم من وجودها في إسرائيل⁽³²⁾.

هذا الوضع الجديد فرض علاقات محدّدة، ليس بين اليهود أنفسهم، إن كانوا داخل الدولة وفي الشتات فحسب، بل بين هؤلاء جميعاً وبين الدول الراعية لوجودهم ولوجود دولتهم. وتتّسم هذه العلاقة بالتوتر الدائم بسبب الاطماع غير المحدودة للقيّمين على شؤون الدولة. فهم حتى الآن لم يرسموا حدود دولتهم لتبقى مستعدة للتوسع بمقدار عدد ساكنيها. ولم يعلنوا دستورهم وأبقوه مضمراً ليستمر التمييز بين اليهودي وغيره. فاليهودي الموجود في أي مكان من العالم هو حكماً مواطناً في دولة إسرائيل بمجرد أن وطأت قدماه أرض الدولة. والمواطن غير اليهودي، المولود فيها، يأتي في الدرجة الثانية على أنه مسلم مقيم في إسرائيل، أو مسيحي مقيم في إسرائيل. لذلك لم تنشأ الدولة

(30) عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجيا الصهيونية...، القسم الأول، مذكور سابقاً، ص 157.

(31) المرجع نفسه، ص 220، 361.

(32) رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية...، مذكور سابقاً، ص 29.

اليهودية دستوراً يحدد نظام الحكم في الدولة، ويرسم حدود الدولة، ويوضح حقوق وواجبات المواطنين فيها، كما تفعل دساتير العالم كله. لأنها لا تريد أن تفصح عن أطماعها ولا عن عنصريتها، ولا عن مشروعاتها غير المكتمل. ولأن هذه المسائل هي بالذات عناصر ضعفها، ومواضع الأخذ والرد بين اليهود أنفسهم، التعاطي المعلن مع هذه المسائل من أخطر ما يمكن أن يهدد السلام الداخلي في الدولة اليهودية⁽³³⁾. ومقتل رابين اليهودي ذي التاريخ الحافل بالإرهاب ومحطم عظام مقاومي الداخل، وعلى يد يهودي آخر، عامير، الدليل الواضح على تناقض النظرة اليهودية إلى حاضر الدولة ومستقبلها. ولكنها في كل الأحوال تبقى نظرة واحدة متناقضة مع نظرة العرب. وما يمكن أن يغطي هذه التناقضات ويحمي المجتمع اليهودي - الصهيوني، الفريد في تكوينه بالمقارنة مع مجتمعات العالم جميعاً⁽³⁴⁾، ومن داخل هذا المجتمع، هو ديمومة الاستنهاز بالانتصار، والتوتر الدائم مع الخارج، مع العرب. فالانتصارات هي التي تعطي الدفع القوي لعملية الهجرة إلى إسرائيل، والانسحابات تسبب العكس وتوحي بالضعف والوهن، «والتوسع الصهيوني هو الذي يعطي المجتمع الإسرائيلي معنى وهدفاً»⁽³⁵⁾.

تطوّرت الأفكار المتعلقة بهوية الدولة اليهودية في إسرائيل، من كونها دولة اليهود في العالم، إلى دولة يهودية تفك ارتباطها السياسي بيهود الشتات، وتحصل في الوقت نفسه، على دعمهم المعنوي، توصلاً إلى حل إشكالية الهوية في الداخل، وإشكالية الشتات في الخارج. وقد عبّرت عن هذه الآراء تيارات سياسية وفكرية في إسرائيل، ابتداء من التيار الكتعاني، مروراً «بالصباري» ووصولاً إلى التيار الإسرائيلي الذي يريد إسرائيل قائمة بذاتها ولذاتها، ولكل مواطنيها. وقد توارثت نظرة هؤلاء مؤسسات وحركات سياسية، على رأسها حركة «السلام الآن» وقسم من حزب العمل وغيرها⁽³⁶⁾.

ساهمت الظروف المرافقة لنشوء دولة إسرائيل، ولعلاقاتها المقطوعة والمتوترة مع محيطها، في بلورة مشروع تناقض بين القوى السياسية في إسرائيل ينطلق من

(33) للتفصيل حول العقبات التي تحول دون وضع دستور رسمي للبلاد، وخطورة ذلك على السلام الداخلي في إسرائيل، واستحالة مساواة «المواطنين» في ظل الأيديولوجيا السائدة، انظر: هنري حاماتي: «لا سلام ممكن»، مجلة اتجاه، العدد الثالث، آب - أيلول، 1996، ص 242 - 261.

(34) لم تكن إسرائيل فريدة في كونها عضواً في الأمم المتحدة مع أنها بلا دستور وبلا حدود متعينة فحسب، بل هي بذاتها موجودة نتيجة الأيديولوجيا الصهيونية. «ومن هنا جاءت السمات الفريدة للمجتمع الإسرائيلي، فقد أنشأت الحركة السياسية شعباً، ولم ينشأ الشعب الحركة، وأنشأت الأحزاب السياسية المجتمع ولم ينشأ المجتمع الأحزاب، وأنشأ الهستدروت (النقابة العمالية) الطبقة العاملة الإسرائيلية، ولم تنشأ الطبقة العاملة النقابة...».

عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجيا الصهيونية...، القسم الثاني، مذكور سابقاً، ص 450.
(35) عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجيا الصهيونية...، القسم الأول، مذكور سابقاً، ص 178 - 179، نقلاً عن: نعم شومسكي: السلام في الشرق الأوسط.

(36) للتفصيل حول القوى السياسية في إسرائيل، والمطالبة بدولة سياسية بصرف النظر عن الانتماء الديني ولكن تحت اسم إسرائيل وبقيادة إسرائيليين، انظر: رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل...، مذكور سابقاً، ص 25 - 205.

تحديد الهوية ومن العلاقة مع الاغيار على أرضها. فظهر نوع من التحالف الاستراتيجي بين القوى الدينية، وريثة العهد التوراتي وحامية الوعد التوراتي، وبين القوى السياسية اليمينية المتطرفة في مناهضة هذا المشروع المناقض لطابع الدولة اليهودية الممتدة على قدر ما يستطيع المدّ اليهودي القادم من أنحاء العالم. وقد عبّرت حكومة الليكود عن ذلك، في سنة 1996 بقولها إن إسرائيل تحت حكمها هي الدولة اليهودية وليست دولة كل مواطنيها، دولة الشعب اليهودي وحقّه في أرض إسرائيل كحق أبدي غير قابل للنقض⁽³⁷⁾.

كان هذا الفرز وليد المواجهة غير المتكافئة بين إسرائيل والعرب في 1967. وقد ساهمت هذه الحرب في تعديل المواقف وخلط الأوراق داخل الدولة والمجتمع في إسرائيل كنتيجة لحرب ظهرت وكأنها مساعدة مباشرة من الله - إله إسرائيل - لها للوقوف في وجه العرب وهزيمتهم، وحافز لازدياد الإيمان بيهودية إسرائيل وبقدرتها على البقاء⁽³⁸⁾.

وإذا جاءت الأفكار السياسية - القومية العاملة على بناء الدولة وفق ما تقتضيه فكرة الدولة - الأمة على صورة دول الغرب ومثاليها، متلازمة مع هدوء الجبهة العسكرية، فإن اشتعال هذه الجبهة في العام 1967 و1973، أعادت أيديولوجيا الاستنهاض إلى عهدها السابق، إلى ما قبل إنشاء هذه الدولة وأثناء قيامها. وبعث الأيديولوجيا هذا غير الكثير من الأمور سواء في ما يتصل بطبيعة هذا المجتمع، أو في ما يتصل بالطرح الإشكالي لقضية الهوية داخل دولة إسرائيل⁽³⁹⁾.

انصرفت أيديولوجيا الاستنهاض إلى تفسير الانتصار الإسرائيلي على العرب في 1967 بأنه معجزة إلهية ونتيجة لانحياز الله إلى شعبه المختار. ونجحت في زرع هذه الأفكار، ليس في أذهان المتدينين فحسب، بل أيضاً في أذهان أوساط كثيرة من العلمانيين مما أدّى إلى شيوع أفكار من نوع جديد تخلط بين النزعة الدينية والنزعة القومية، وتتوسّل التاريخ الديني بكل مضامينه من أجل تفسير ودعم وتبرير المواقف السياسية والممارسات العسكرية مهما كان شأنها لترسيخ الاتصال المتين في السياسة والدين، وتربط الفروع السياسية والعسكرية بالاصول الدينية.

المنطق الذي يحكم هذا التوجّه يفرض على معتنقيه وضعا يتصف بالاستنفار العام ضدّ كل ما هو غير يهودي، وعلى الخصوص ضدّ كل ما هو غير عربي. والمنطق نفسه يحكم العلاقات الداخلية بين اليهود أنفسهم، بين قائل بالعلمانية والعامل على إنشاء دولة علمانية لكل مواطنيها، وإن كان تحت اسم إسرائيل وبقيادة يهود إسرائيليين، أو

(37) المرجع نفسه، ص 178.

(38) المرجع نفسه، ص 181.

(39) المرجع نفسه، ص 221.

بالنسبة إلى القائلين بإنشاء حكومة ديمقراطية تتعاطى مع اليهود والعرب على قدم المساواة. الجميع يتفقون على الوجود الضروري لدولة إسرائيل، وعلى البقاء في موقع القوة حتى في فرض عملية السلام⁽⁴⁰⁾.

بدايات التناقض هذه، وبتوسل أدوات الصراع مع الخارج، الأدوات التي تعيد إنتاج أيديولوجيا الاستنهاز، بصرف النظر عن نتائج هذا الصراع، انحسرت لمصلحة المؤمنين بالقومية الدينية وبالقومية السياسية الراضين لمبدأ المفاوضات، والمتمسكين بمبدأ القوة في علاقاتهم مع الخارج، وبمبدأ التوسع تحقيقاً للوعد الإلهي. فأدى رجحان كفة المتطرفين، في المنطق اليهودي، إلى ازدياد نفوذ المتدينين، وإلى وجود نوع من التحالف الاستراتيجي بين هؤلاء وبين المتطرفين على المستوى السياسي - الصهيوني بالمنطق اليهودي نفسه، تجلّى في سيطرة الليكود على الحكم في سنة 1977، ووصول حركة «جوش أمونيم» إلى الواجهة السياسية بأفكارها المتطرفة والقائمة على مبدأ الكراهية للأغيار، الداعية إلى إقامة إمبراطورية يهودية خاضعة لسلطان الشريعة يستبعد فيها الأغيار على يد اليهود⁽⁴¹⁾.

هذا التحالف نقل توجه الدولة إلى موقع متقدم في توسل أيديولوجيا الاستنهاز ذاتها عن طريق افتعال الحروب، وضرب أية إمكانية لحصر إسرائيل في حدود واضحة تفرضها أية معاهدة، وربط اليهود بدولتهم بإدغام مصيرهم بمصيرها على قاعدة الاستنفار الدائم والاستنهاز، ولو بالقسر، بتعزيز فكرة اللاسامية لدى الأغيار، والعمل على إيقاظ الشعور الديني، والممارسات الدينية بالتفريق بين الحرام والحلال حسب ما تقتضيه الشريعة اليهودية، مع التأكيد على كفر الدولة العلمانية وبعدها عن الدين.

لم يقبل التوجه السياسي الجديد ما قام به حزب العمل من ممارسات تمسّ في الصميم العقيدة اليهودية التي ترفض التنازل عن أية أرض تخصّ اليهود، وضمن نطاق الوعد الإلهي. واغتيال إسحق رابين رئيس الوزراء الذي تنازل طوعاً عن الضفة الغربية والقطاع، «اليهودية والسامرة» بالمنطق اليهودي، كان نتيجة طبيعية وصل إليها التناقض في النظرة الإسرائيلية إلى واقع الدولة ومستقبلها. ولا يعود السبب إلى مخالفة دينية لما جاء في التوراة تستوجب القتل فحسب، بل، وبالإضافة إلى ذلك - ولسبب سياسي أكثر منه ديني - مخالفة المنطق الداخلي لأيديولوجيا الاستنهاز اليهودي، باعتبار أنه لا يمكن لإسرائيل أن تحيا وتستمر بالحياة إلا بمنطق الحرب والاستنفار الدائم والعدوان. وبهذا المنطق يمكن تفسير العدوان الإسرائيلي على لبنان وعلى

(40) انظر في هذا الخصوص: عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجيا الصهيونية...، القسم الأول، مذكور سابقاً، ص 212. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية...، مذكور سابقاً، ص 242، حيث يسمي هذا النوع من السلام: «سلام الردع» المبني على «ترتيبات أمنية مفصلة تمكن إسرائيل من حماية نفسها من العدوان، وفي الوقت نفسه تحافظ على استمرار السلام». وهذه الفكرة مأخوذة من كتاب تننياهو، مكان تحت الشمس.

(41) المرجع نفسه، ص 226.

الفلسطينيين، وعلى قانا بالذات. فالامر كما يقول روجيه غارودي، وخصوصاً في ما يتعلق بمجزرة قانا، لا يمكن أن يكون غلطة عابرة، إنه تعبير عن المنطق الداخلي للصهيونية السياسية التي قامت عليها دولة إسرائيل⁽⁴²⁾. فالسلام بالنسبة إليها يعني خفوت أيديولوجيا الاستتھاض، وانصراف الداخل إلى معالجة شؤونه السياسية والدينية مما يؤدي إلى زيادة حدة التناقض فالمواجهة فالانفجار.

ما قام به رابين ليس نقلة نوعية نحو السلام بمنطق الليكود والأحزاب الدينية، كما هو بمنطق حزب العمل واللائذين به. تناقض المنطقين أدّى إلى إيقاف المشروع «العملي» بالقوة عن طريق الاغتيال، لأن ما قام به رابين يعني تنازلاً، عن سابق تصوّر وتصميم، عن المنطق الداخلي الذي يكفل بقاء إسرائيل وقوّتها، بالحرب والعدوان والتوسع، وقبولاً «بتحديد» إسرائيل «كدولة طبيعية» يمكنها العيش بسلام وأمن مع جيرانها مقابل التخليّ عن جزء من الأرض الوارد ذكرها في التوراة. وهذا بمنطق المعارضين ليس سلاماً لإسرائيل بل هدر لأمن إسرائيل. ويهدّد روح الأمة وعلّة وجودها. فالقضية ليست قضية أمنية بل هي قضية لاهوتية⁽⁴³⁾. وبما أنها كذلك، فإن إيقاف المشروع المهدّد لوجود إسرائيل، والمخالف للوعد الإلهي، واجب ديني ولو أدّى ذلك إلى القتل. هذا ما صرّح به عامير، قاتل رابين، عند سؤاله عن سبب إقدامه على تنفيذ عملية الاغتيال. وهذا ما جعل عامير نفسه من أشد المعجبين بجولد شتاين منقذ مجزرة الحرم الإبراهيمي⁽⁴⁴⁾.

* * *

تفسّر أيديولوجيا الاستتھاض الطبيعة العدوانية للدولة اليهودية - الصهيونية. والمنطق الداخلي لهذه الأيديولوجيا يمنعها من العيش في سلام. والدولة بهذا المنطق محكومة بالحرب والعدوان. فهي تفضّل أن تبقى على عدوانها مع الخارج لتحافظ على التماسك في العلاقات مع الداخل. والسلام مع الخارج، أو حتى الهدوء على جبهة الخارج، يؤدي إلى انفجارها من الداخل لما بين الدينيين والعلمانيين من تناقض واختلاف على مستوى الهوية والنظام السياسي، أو على مستوى العلاقة مع الخارج، إن كان بالنسبة إلى يهود الشتات، أو الدول الحاضنة لهم. ولكنهم في كل الأحوال متوحّدون في علاقتهم بنا. أحلى مشاريعهم مرّ على مذاقنا.

قدرنا أن نبقي في مواجهتهم. قدرنا هو الحفاظ على وجودنا.

(42) انظر في هذا الخصوص: روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة...، مذكور سابقاً، ص 232، 272.

(43) جاء ذلك على لسان عامير، قاتل رابين أثناء التحقيق معه. وقال إن الرب كان معه عندما قتل رابين. انظر للتفصيل: رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية، مذكور سابقاً، ص 232 - 233.

(44) المرجع نفسه، ص 233.